

التّصور البلاغي الجديد بين عبد القاهر الجرجاني ومحمد العُمري

أ/ بوزيد شتوح¹، أ/د: مسعود صحراوي²

¹ جامعة عمار ثليجي - كلية الآداب واللغات - قسم اللغة العربية وآدابها

Chettouh01@gmail.com

² جامعة عمار ثليجي - كلية الآداب واللغات - قسم اللغة العربية وآدابها

hammaboutaleb56@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2019/06/22 . تاريخ القبول: 2019/12/01 . تاريخ النشر: 2019/12/31

الملخص:

يُعتبر مشروع محمد العُمري من أهم المشاريع البلاغية التي تسعى إلى قراءة التراث البلاغي وفق آليات وأدوات ومناهج جديدة تتماشى مع الدراسات اللسانية الحديثة، وفي هذه الورقة البحثية تبيانٌ للرؤية الحداثيّة التي أضفها هذا الباحث في تصوّره لمشروع عبد القاهر الجرجاني وخاصة في كتابيه: «أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز»، إذ جعله العُمري انتقالا من الغرابة الشعرية المتضمنة في «الأسرار» إلى المناسبة التداولية المتضمنة في «الدلائل»، وفي هذا السياق يتمّ استخلاص لأهم المصطلحات التي اعتمدها العُمري كأداة من أدوات التحليل والتجديد البلاغي (مثل: التّسق، الانزياح، التداولية)، وأهم الرؤى الحداثيّة التي أقرّها الدرس اللساني الحديث.

الكلمات المفتاحية: البلاغة - محمد العُمري - عبد القاهر الجرجاني - الرؤية الحداثيّة.

★ المؤلف المرسل: بوزيد شتوح، Chettouh01@gmail.com

The new rhetorical perception between Abd al-Qaḥer al-Jarjani and Muhammad al-Omari

Abstract: The Muhammad Al-Omari project is considered one of the most important rhetorical projects that seek to read the rhetorical heritage according to new mechanisms, tools and curricula that are in line with modern linguistic studies. In this research paper is an illustration of the modernist vision that this researcher added in his conception of the Abdel-Qaḥer Al-Jarjani project, especially in his book: The miracle ", as Al-Omari made it a transition from the poetic strangeness included in the " secrets "to the deliberative occasion included in the " evidence ", and in this context, the most important terms that Al-Omari adopted as a tool of analysis and rhetorical renewal (such as: layout, displacement, deliberative) are extracted. The most important modernist visions endorsed by the modern linguistic lesson.

Key Words: Rhetoric - Muhammad Al-Omari - Abdul-Qaḥer Al-Jarjani - The Modernist Vision.

تَمْهِيد:

ارتبطت البلاغة العربية بمسارين شكلاً مادتها وجوهرها، مسار شعري قائم على الإمتاع، ومسار خطابي قائم على التداول (الإقناع)، ويرجع العمري مفهوم الشعرية إلى العناية بمحاسن الكلام وزخرفه، وقد ظهر هذا التوجه مع ابن المعتز في كتابه «البدیع» الذي غدّ نسقا يغذيه الطابع الشعري. «من البديهي أنّ أول تفكير في اللغة كان تفكيراً بلاغياً؛ فقد ظهرت الملاحظات الأسلوبية قبل ظهور العروض والنحو والمنطق، كما روي من تاريخ تلقّي الشعر العربي في الجاهلية وصدر الإسلام. أي قبل ظهور المصطلح البلاغي كنسق لعلم. وهذه حقيقة استنبطها البلاغيون الغربيون أيضاً من تاريخ بلاغتهم، (...) وكان من مظاهر هذا التفكير ربط الشعر بالعوالم غير العادية؛ بالجن والشياطين والتنبه إلى العيوب الإيقاعية والحجاجة فيه. كانت هذه الملاحظات هي المصدر الأول للبلاغة العربية تحت اسم البدیع ومحاسن الكلام (ابن المعتز)، وقد تطوّر هذا المسار من خلال الخصومات حول ما هو بدیع وما ليس كذلك»¹.

وبذلك يمكن ردّ الشعرية إلى مجال البديع الذي عُدّ في مرحلة سبقت من مراحل التفكير البلاغي. ممثلاً شرعياً للبلاغة العربية التي قامت في بادئ أمرها على الشعر الذي شغل حيزاً كبيراً، وهو ما استقاه العمري من كلام القرطاجني في قوله: «لما كان علم البلاغة مشتملاً على صناعتي الشعر والخطابة وكان الشعر والخطابة يشتركان في مادة المعاني ويفترقان بصورتي التخيل والإقناع وكان لكلتيهما أن تخيل وأن تقنع في شيء من الموجودات الممكن أن يحيط بها علم إنساني وكان القصد في التخيل والإقناع حمل النفوس على فعل شيء أو اعتقاده أو التخلي عن فعله واعتقاده وكانت النفس إنما تتحرك لفعل شيء أو اعتقاده أو التخلي عن واحد من الفعل والطلب والاعتقاد بأن يخيّل لها أو يوقع في غالب ظنها أنه خير أو شر بطريق من الطرق التي يقال بها في الأشياء إنها خيرات أو شرور (...)، إذ المعتبر في حقيقة الشعر إنما هو التخيل والمحاكاة في أي معنى اتفق ذلك»².

ثم يستعين العمري بكلام حازم عن العمدة التي يتميز بها كل من الاتجاه الشعر والاتجاه الخطابي، وهذا لإعطاء الخصوصية المناسبة لكل منهما، حيث أنّ حازماً رأى أنّ الأقاويل المخيلة هي العمدة في الشعر، وأنّ الأقاويل المقنعة هي العمدة في الخطابة، في قوله: «وينبغي أن تكون الأقاويل المقنعة، الواقعة في الشعر، تابعة لأقاويل مخيلة، مؤكدة لمعانيها، مناسبة لها في ما قصد بها من الأغراض، وأن تكون المخيلة هي العمدة. وكذلك الخطابة ينبغي أن تكون الأقاويل المخيلة الواقعة فيها تابعة لأقاويل مقنعة مناسبة لها مؤكدة لمعانيها، وأن تكون الأقاويل المقنعة هي العمدة»³.

وبهذا فإنّ قضية التخيل والتداول في مسار البلاغة العربية قد بدأ بعمل ابن المعتز تحت اسم البديع ومحاسن الكلام والذي يغذيه الشعر، ثم لحقه مسار البيان الذي تغذيه الخطابة عند الجاحظ.

وثنائية التخيل والتداول تتجسد في قراءة العمري لمشروع عبد القاهر الجرجاني والتي هي امتداداً من الامتدادات الكبرى في ربطها (القراءة) مع المشاريع اللاحقة عند ابن سنان الخفاجي، والسكاكي، وحازم القرطاجني؛ على اعتبار أنّ العمري انطلق مع مشروع عبد القاهر الجرجاني من الغرابة الشعرية والبحث عن مميزات القول الشعري، وتحليله لقضية التخيل والصدق والكذب ضمن النظرية الأدبية العامة، عند الجرجاني في كتابه أسرار البلاغة، وينتقل منها إلى المناسبة التداولية في كتابه «دلائل الإعجاز»⁴، ليصل بعدها إلى مستوى البنية الصوتية والصرفية مع ابن سنان الخفاجي، ثم يمثل أمامنا نموذجاً معضوداً

بالنحو والمنطق عند كل من السكاكي وحازم، وهذا كله في إطار بناء النموذج البلاغي المرتقب الذي يتجسد في البلاغة العامة.

قسّم العمري مشروع الجرجاني إلى قسمين مرتبطين تاريخياً بسياق التأليف، وقد رسم لهما تصوّراً يرصد فيه أهم التحولات التي طرأت على هذين القسمين، معتمداً في ذلك على الوصف والتحليل والتركيب⁵، ويمكن تبين ذلك فيما يلي:

1/ قراءة محمد العمري لمشروع عبد القاهر الجرجاني: وتتلخّص فيما يلي:

1-1/ الغرابة الشعرية أو سرّ ((الأسرار)):

يرى العمري أنّ عمل الجرجاني في كتابه أسرار البلاغة قد بُني على عنصرين متعارضين، وهما:

« عنصر الغرابة المفيدة وعنصر الوضوح غير المفيد (في مستوى المعنى البلاغي). ولكل منهما مرادفات وصفات وتجليات. فالغرابة تقترب بالمفارقة والتخييل والتركيب والتأويل وتوصف بالغموض والكذب.. الخ. ومن هنا فهو خاصة (ضد عامية). والوضوح يقترب بالعقل والمعرفة والصحة، ويوصف بالصدق والصراحة.. الخ. ومن ثمّ فهو عاميّ⁶». ومصطلح الغرابة الذي قصده العمري عبّر عنه الجرجاني بمرادفين جوهريين: هما اللبس والإيهام، وضدّه هو الحقيقة التي عبّر عنها العمري بالوضوح غير المفيد، وقد اتّسم هذا الوضوح بالصدق والصراحة والعامية أي أنّ الإنسان الذي يمتلك عقلاً راشداً يستطيع أن يعبّر عنه وهو قائم على المواضعة والاصطلاح البشري، وهذا ما عبّر عنه الجرجاني منطلقاً في ذلك بالمفرد في قوله: «كلّ كلمة أريد بها ما وقعت له في وَضْع واضح، وإن شئت قلت: في مُواضعة، وقوعاً لا تستند فيه إلى غيره فهي حقيقة، وهذه عبارةٌ تنتظم الوضع الأول وما تأخّر عنه، كلغةٍ تحدث في قبيلة من العرب، أو في جميع العرب، أو في جميع الناس مثلاً، أو تحدث اليوم، ويدخل فيها الأعلام منقولة كانت كزيد وعمرو، أو مرتجلة كقطفان وكلّ كلمة استؤنف لها على الجملة مواضعة، أو ادّعي الاستئناف فيها⁷». والجرجاني سلط الضوء في ذلك على الغرابة المقترنة بالتخييل والتي تندرج فيها مباحث بلاغية جوهريّة كالمجاز والاستعارة والتشبيه.

وقد شكّل العمري قراءة نسقية لمداخل مشروع الجرجاني، وذلك في أنّه قدّم خطاطة عامة لأقسام كتاب "أسرار البلاغة"، بحيث أنّه أشار إلى الفكرة العامة لمقدمة الكتاب وهي اشتغالها على موضوع البلاغة؛ وهو خصوصية وصورة المعنى المرتب في النفس للفظ المنتظم تبعاً لذلك داخل التركيب في قوله: «وفي ثبوت هذا الأصل ما تعلّم به أنّ المعنى الذي له كان هذه الكلم بيت شعرٍ أو فصل خطابٍ، هو ترتيبها على طريقة معلومة، وحصولها على صورة

من التأليف مخصوصة، وهذا الحكم - أعني الاختصاص في الترتيب - يقع في الألفاظ مرتباً على المعاني المرتبة في النفس، المنتظمة فيها على قضية العقل، ولا يتصور في الألفاظ وجوب تقديم وتأخير، وتخصّص في ترتيب وتنزيل⁸، ثم ذكر العمري أنّ موضوع الكتاب قد حصره المؤلف منذ البداية في «التشبيه والتمثيل والاستعارة»⁹ والمنجز من الكتاب راجع إلى ثلاثة أقسام، فالقسم الأول خصصه للحديث عن مراتب العلاقات بين أطراف التشبيه وكذا الاستعارة والفرق بين التشبيه والتمثيل، القسم الثاني منه ركز فيه على تحديد العلاقة بين الاستعارة والمجاز، والتمييز بين أنواع المجاز (اللغوي والعقلي)، وأما القسم الثالث فقد تناول فيهما قضايا الأخذ والسرقعة بين شاعرين مختلفين¹⁰. وبعد هذا التصور العام لكتاب الأسرار، يمكن أن نشير إلى القراءة التّسقية التي قدمها العمري لمداخل الكتاب والمندرج ضمن «الغربة الشعرية».

فالمدخل الأول يكمن في المواجهة التي كشف عنها الجرجاني بين المعنى الصحيح والمعنى التخيلي، وهذا الجزء من عمل الجرجاني يريد من خلاله أن يحلّ مشكلة السرقات الشعرية ببيان المشترك بين الشعراء¹¹، والذي لا يعتبر وجوده عند شاعرين سرقة، وبين الفردي الخاص الذي يصنع التميّز والمفاضلة بين شاعر وآخر، وهنا تتأكد ضرورة فهم الأعمال البلاغية في إطار الانشغالات الأدبية والنقدية لعصرها؛ لأنها تمثل إجابات عن الأسئلة المطروحة آنذاك، وبالتالي تقدّم العمري خطاطة يصف فيها مكوّنات الخطاب الأدبي التي تجمع ما بين المشترك العام بين الشعراء، والفردي الخاص بين شاعر وآخر وهي كالآتي:

مكونات الخطاب الأدبي

عامة

مشتركة

(1)

(2) فردية خاصة

(5) البناء

(4) صور أسلوبية

(3) حجاجية

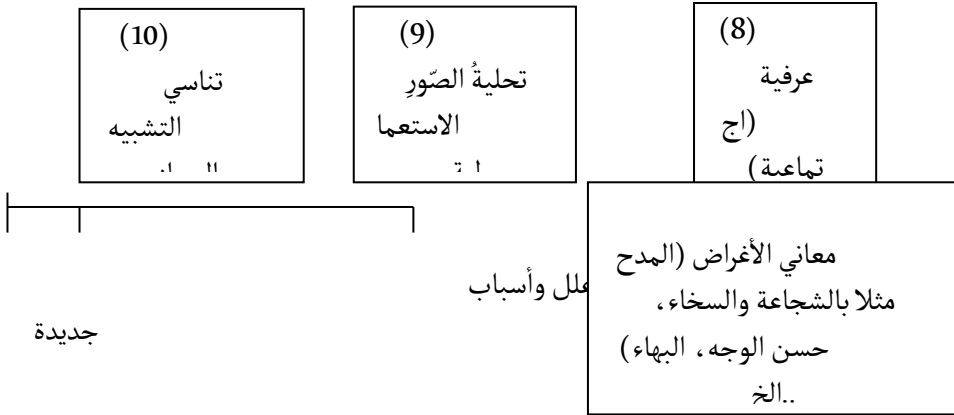
(6) ابتداء الجديد

على

الصور

استعمالية عامة

البلاغية



عقلية المأثور

(الحكم) (الأمثال وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام)¹²

في هذا المخطط نستنتج أنَّ العمري يقصد من ورائه وجود أوجه الإبداع والمفاضلة في الجوانب الفردية الخاصة للخطاب الأدبي، والتي تبني على الصور البلاغية الاستعمالية كالاستعارة والكناية والمؤدية للتأثير في نفسية المتلقي، وتسعى دوماً إلى إبداع علاقات خطابية جديدة لم تكن معهودة من قبل لكسب وجه التفاضل بين شاعر وآخر، في حين أن المكونات المشتركة والعامة للخطاب الأدبي لا يقع فيها وجه التفاضل؛ لكونها تشتمل على قضايا عرفية وحجاجية المؤدية للتصريح والتوضيح، وقد تكون نابعة من معين العقل أو من كلام مأثور.

والمدخل الثاني، ينمَّ عن التراتبية بين «المعنى القريب المأخذ والمعنى البعيد المأخذ»¹³، مقيماً مقارنة بين شتى الصور البلاغية من استعارة وتمثيل واستعارة تمثيلية، ويبين فضيلة الصور ذات الخاصية العجيبة (التخيلية)، وبين الصور الساذجة كالتشبيه المرسل¹⁴، والمعالجة اللسانية العقلية تبرز من خلال هذا المدخل؛ لأن الجرجاني يناقش مسألة الخروج عن الأصل، وصناعة الحدث الشعري بخصائصه ومميزاته التخيلية خاصة منها العقلية.

وأما المدخل الثالث فقد كشف العمري من خلاله عن اهتمام الجرجاني بقضية المجاز وتقسيمه إلى:

- ✓ مجاز مفرد: ويعرّف على أنه كل «كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وَضْع واضعها، لملاحظة بين الثاني والأول»¹⁵
- ✓ مجاز في الجملة: ويعرّف على أنه كل «جملة أخرجت الحكم المُفَادَ بها عن موضعه من العقل لضرب من التأول»¹⁶
- ✓ المجاز العقلي (الحكمي): وهو الذي يجعله الجرجاني واقعا في الإثبات لا في المثبت أي لا يقع في المفرد.

فالبحث الذي خاضه الجرجاني في الأسرار هو بحث عن مدارج الغرابة ومستوياتها، باعتبارها مكونات للخطاب الشعري؛ منها ما يعدُّ معيارا لتقييم العمل الشعري وينبغي أن يتأسس عليه (المعاني الفردية الخاصة)، ومنها ما يشترك فيه مع الآخرين (المعاني المشتركة العامة) ولا تعتبر مرجعا ضروريا في بناء العمل الشعري، وبالتالي فكتاب الأسرار هو «أول كتاب يطرح سؤال الهوية، هوية الخطاب البليغ فإنه كان محكوما بتوجهه إلى الشعر، ولذلك يصلح أن يُسمّى حسب تعابيرنا: أسرار بلاغة الشعر أو لغة الشعر»¹⁷.

2-1/ خلفيات المداخل الثلاثة لكتاب «الأسرار»:

بعدما ذكر العمري مجموعة من المداخل التي ترتبط بالجزء الأول من مشروع الجرجاني وهو الغرابة الشعرية الموجود في كتابه:

«أسرار البلاغة»، أردف ذلك الخلفيات والتّوسيمات العلمية التي لها صلة بهذه المداخل، وهي تشترك في مضمونها بالجانب المنطقي العقلي، فالمدخل الأول هو «لغوي منطقي»¹⁸؛ وهذا لأن الجرجاني قد عالج فيه على وجه الخصوص قضية المعاني المشتركة التي تربطها أحكام عرفية اجتماعية التي لا يحصل فيها مظهر السرقة لأنها قضايا لغوية ودلالية متداولة، ومن الأمثلة التي أعطاها الجرجاني في هذا الشأن نجد «التشبيه بالأسد، وبالبحر في البأس والوجود، والبدر والشمس في الحسن والبهاء والإنارة والإشراق (..) وكذلك الجواد يوصف بالتَهَلُّل عند ورود العُفاة، والارتياح لرؤية المجتهدين، والبخيل بالعبوس والقُطوب وقلة البشر، مع سعة ذات اليد ومُساعدة الدهر»¹⁹.

ويعدّ المدخل الثاني منطقيًا نقديًا²⁰؛ لأنّ الجرجاني عالج فيه مسائل نقدية حسم فيها نظرية المعاني الشعرية التي كانت محلّ دراسة ونقاش خصوصا في النصف الثاني من القرن الرابع (مثل: كتاب الموازنة بين شعر أبي تمام والبحري للأمدي المتوفى سنة 370هـ، وكتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني المتوفى سنة 392هـ)، وقد كان حسمه لهذا الأمر في التفريق بين المعاني المشتركة والمتداولة بين الناس جميعا، وبين

المعاني الخاصة أي الشعرية، وبالتالي نجد أنه بحث في أدبية النصوص وهو ما يحيلنا إلى تلاقٍ معرفي مع مضمون الشعرية في الدراسات المعاصرة²¹. وأما المدخل الثالث فهو مدخل "ديني منطقي"²²؛ لأنّ الجرجاني عالج فيه قضية المجاز وناقش فيه قضايا الإثبات والمصدر الأول أو الحقيقي للفعل، مثل حديثه عن وجود حقيقة متصلة باليد وهي النعمة فتقع موقعها مجازاً²³. وبالتالي فالعمري يبين الخلفيات التي جاءت من وراء تلك المداخل عند الجرجاني في كتابه «أسرار البلاغة» مستنتجا جوانب ذلك والمتمثلة في الجانب اللغوي والنقدي والديني ويشتركون في الجانب المنطقي، وقد أكد العمري على وجود هذا الجانب؛ لأنّ الجرجاني سار وفق منهجية مضبوطة وترتيب منهجي محدّد متأثراً بالفكر الفلسفي وخصوصاً بالفلسفة المسلمين أمثال «ابن سينا» (ت427هـ) وفلاسفة الإغريق أمثال «أرسطو» (ت322ق.م) فالجرجاني قرأ «الفصل الذي عقده ابن سينا (للعبارة) (...) وحاول أن يدرسه دراسة نقد وتمحيص. والواقع أنه درس (الحقيقة) و(المجاز) فتبيّن له أن تصور القدماء للمجاز مضطرب غير مستقيم، فأنبرى يوضح مبهمه ويجلو غامضه. فقسّم المجاز إلى نوعين: (مجاز لغوي) و(مجاز عقلي) ثم قسم المجاز اللغوي إلى نوعين: أحدهما يقوم على التشبيه، وأما الآخر فعبارة عن كل لفظ استعمل مكان لفظ آخر لصلة بينهما (...) ومجاز أرسطو الذي يجيز إطلاق اسم الجنس على النوع، واسم النوع على الجنس، واسم النوع على نوع آخر (...) هو ما يسميه عبد القاهر (مجازاً مرسلًا).

وأما المجاز الذي يقوم على التشبيه، والذي يسميه أرسطو (صورة) فيسميه عبد القاهر (استعارة)²⁴، وبالتالي نجد علاقة تأثير وتأثر بين الفكر المنطقي والفكر البلاغي عند الجرجاني في كتابه أسرار البلاغة وهو ما حدّده العمري الذي رجحه في جهات عدة منها:

- إبراز الفرق بين المعاني الصريحة عقلياً أو اعتقادياً والمعاني التخيلية المؤولة.

- بيان الفرق بين الحسي القريب والمؤول البعيد.

- إبعاد صور النقل غير التشبيهية عن مجال البديع.

ثم أرجع العمري هذا الجهد الذي بذله الجرجاني إلى نظرية المحاكاة الأرسطية في قراءتها العربية²⁵ إلا أنّ بعض الباحثين أنكر صلة التأثير بين الجرجاني وأرسطو أو الفلاسفة العرب، وعلى رأسهم «أحمد أحمد بدوي» (ت1384هـ)، فقد عبّر عن شكّه في هذا التأثير من الجرجاني سواء في كتابه «أسرار البلاغة» أو «دلائل الإعجاز» وذلك في قوله: «إن صمت عبد القاهر عن الحديث عن آراء أرسطو يثير في كثير من الريب في أن صاحب الدلائل والأسرار قد نقل نقلاً مباشراً عن الفيلسوف الإغريقي فإنه حتى في فكرة النظم التي وقف عليها كتابه دلائل

الإعجاز قد نقل عن العلماء ما يؤيدها كما نقل عن العلماء كثيرا مما يؤيد أفكاره التي كتبها في أسرار البلاغة.

فإذا كان قد نقل عن أرسطو فلم يكن الفيلسوف اليوناني بمن يسرّ عبد القاهر الأخذ عنه. ولذلك أقف في ريبة من أمر دراسة عبد القاهر للثقافة الإغريقية المرتبطة بالبلاغة والنقد الأدبي»²⁶، ثم يصرح بعدم انتفاع الجرجاني بالمقالة الرابعة لابن سينا في كتابه الخطابة، وذلك في قوله: «أما نحن فنرجح أنه لم ينتفع بهذه المقالة ولم يتصل بها، وإذا كان هناك بعض التشابه في العناوين فليس ذلك بدالّ على ذلك الانتفاع»²⁷. ومن هنا نجد أن هذه القضية شكّلت خلافا بين الباحثين فمنهم من أثبت وجود هذا التأثير أمثال العمري وطه حسين ومنهم من أنكر ذلك جملة وتفصيلا أمثال أحمد أحمد بدوي.

1-3/ المناسبة التداولية (دلائل الإعجاز):

يرى العمري أنّ عملية انتقال الجرجاني من كتابه «أسرار البلاغة» إلى كتابه «دلائل الإعجاز» ليست تغييرا للموضوع أو قلبا للتصور الذي كان ماثورا في أسرار البلاغة، بل هو تكملة وربط ذلك بمقتضيات النظم النحوي؛ لأن القضية التي عالجه في الكتابين واحدة وهي أنّ الجرجاني قد بحث عن «معايير بلاغة الشعر دون أن يلجّ على الغرض الإعجازي، أما في الدلائل فبحث عن معايير بلاغة الشعر باعتباره معجزة العرب في البلاغة، لينتهي من تحصيل هذه المعايير إلى تفوق القرآن الكريم (...) فالموضوع واحد وإن اختلفت الأهداف البعيدة في الوضوح والظهور. والمنطلق واحد وهو اعتبار البلاغة في المعنى وإن اختلف المقصود بالمعنى؛ هل هو المعنى الغريب المعجب كما في الأسرار أم المعنى المناسب للمقاصد كما في الدلائل؟»²⁸.

وهنا يقدم العمري تصورين في اختلاف المعنى عند الجرجاني بين الأسرار والدلائل، تصوّرًا انزياحيًا لم تندرج فيه عناصر النظم (الترتيب، التعليق، التقديم والتأخير، الحذف... الخ)، بل استمدّت أسئلته من مفاهيم خطابية لها علاقة بطبيعة الشعر القديم، وتصورًا تداوليًا مقصديًا استوعب فيها المادة الانزياحية (المجاز، الاستعارة، الكناية... الخ) وجعلها مشروطة وتابعة للنظم والسياق²⁹.

ولا تختلف كثيرا قراءة العمري للدلائل عن قراءته للأسرار؛ فقد رصد المداخل الأساسية في الكتاب (دلائل الإعجاز) محددات التقسيمات التي تحكم نسقه، بين التقسيم الثنائي الذي وضعه الجرجاني للمزية في (اللفظ أو في النظم) في قوله: «اعلم أنّ الكلام الفصيح ينقسم قسمين: قسمٌ تُعزى المزية والحسن فيه إلى اللفظ وقسمٌ يعزى ذلك فيه إلى النظم»³⁰.

ثمّ تعديله إلى تقسيم ثلاثي الذي يشمل (اللفظ، النظم، أو فيهما معا)، وهذا ما أشار إليه الجرجاني في قوله: «وجملة الأمر أن ههنا كلاماً حُسْنُهُ لَلْفَظِ دُونَ النِّظْمِ، وَآخَرُ حُسْنُهُ لِلنِّظْمِ دُونَ اللفظ، وثالثاً قد أتاه الحسن من الجهتين، ووجبت له المزية بكلا الأمرين. والإشكال في هذا الثالث، وهو الذي لا تَزَالُ تَرَى الغلطَ قد عارضَكَ فيه، وتَرَكَ قد حِفَّت فيه على النَّظْمِ، فتركته وطمخت ببصرِكَ إلى اللفظ، وقَدَّرْتَ في حُسْنِ كان به وباللفظ، أَنه لَلْفَظِ خاصّة. وهذا هو الذي أردت حين قلت لك: «إنَّ في الاستعارة ما لا يُمْكِنُ بَيَانُهُ إلَّا مِنْ بَعْدِ العلم بالنَّظْمِ والوقوف على حقيقته»³¹. ثم يكشف العمري عن مفتاح جوهري في التعامل مع دلائل الإعجاز، فالجرجاني كان يتعامل مع اللفظ والمعنى باعتبارهما مادة وصورة، وحصول المزية عند الشاعر والإعجاز في القرآن الكريم إنما يقع في التفاعل بينهما، وليس باعتبار المعنى شائعاً فيكون مطروحا، فكان «الغرض هنا هو التمييز بين المكوّن النوعي والمكوّن غير النوعي في الشعر»³²، ثم إن اهتمام الجرجاني بقضية اللفظ والمعنى وطغيانهما على كتابيه، راجع أساسا لكونهما «عماد الظاهرة اللغوية وأسس العبارة. وكل كلام عن الكلام، من أي زاوية كان هو في جوهره تحديدٌ لهاية كل منهما وتحليل للكيفيات التي يتم بها تلاحمهما سواء في مستوى اللفظ المفرد أو في مستوى التركيب»³³.

والقصد من الكيفيات هو خصوصية المعنى العام أو صورة اللفظ للمعنى، ومثال ذلك ما أورده من معنى عام وهو تشبيه: زيد بالأسد، ثم يفرد له خصوصيات وصور من التشبيه الغُفْل الساذج (تشبيه زيد بالأسد) إلى معنى التوهّم: أي توهم صورة زيد بالأسد، ثم إلى صورة اليقين (أي قطع الشك والتيقن بالمطابقة ما بين صورة زيد والأسد) إذ يقول: "واعلم أَنه ليس شيء أبين وأوضح وأحرى أَن يكشف الشبهة عن متأمله في صحة ما قلناه، من "التشبيه". فإنك تقول: "زيد كالأسد" أو "مثل الأسد" أو "شبيه بالأسد"، فتجد ذلك كله تشبيها غفلا ساذجا ثم تقول: "كأنَّ زيدا الأسد"، فيكون تشبيها أيضا، إلا أنك ترى بينه وبين الأول بونا بعيدا، لأنك ترى له صورة خاصة، وتجذك قد فخمت المعنى وزدت فيه، بأن أفدت أَنه من الشجاعة وشدة البطش، وأن قلبه قلب لا يخامرہ الذعر ولا يدخله الروع، بحيث يتوهم أَنه الأسد بعينه ثم تقول: «لئن لقيته ليلقينك منه الأسد»، فتجده قد أفاد هذه المبالغة، لكن في صورة أحسن، وصفة أخص، وذلك أَنك تجعله في "كأن"، يتوهم أَنه الأسد، وتجعله ههنا يرى منه الأسد على القطع، فيخرج الأمر عن حد التوهّم إلى حد اليقين»³⁴.

وهذا التلاحم الحاصل بين اللفظ والمعنى والمتمثل في صورة النظم وخصوصيته في أَنه قائم أساسا على قوانين علم النحو وقواعده بدليل قول الجرجاني: «اعلم أَن ليس "النظم"

إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه "علم النحو"، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجته التي تُهَجَّتْ فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رُسِمَتْ لك، فلا تُخلَّ بشيء منه³⁵. لذا نستنتج أن العمري استخرج الخطاطة التي بنى على أساسها الجرجاني عمله، ورأى أن السكاكي استخرجها من بعد فأولها على الشكل الآتي:

1- «النظم = علم المعاني

2- اللفظ = علم البيان»³⁶

وقراءة العمري لمشروع الجرجاني تهدف إلى كشف بنيته وتشكيل عناصره وفق رؤية جديدة، ومن خلال استكشاف الأنساق التي تحكم الكتابين، وتحدد المركز والهامش في كل منهما، وتمكن من بناء العلاقات بينهما، وتربط ذلك بعمل السكاكي، ومسألة الرؤية الجديدة التي قدمها العمري هي ما سنفصل فيها في العنصر الموالي من هذا البحث.

2/ الرؤية الحداثيّة في قراءة محمد العمري لمشروع عبد القاهر الجرجاني:

تتجلى مظاهر التجديد في قراءة العمري لمشروع الجرجاني فيما يلي:

1-2/ في مجال المصطلحات:

أضفى العمري في قراءته لمشروع الجرجاني مجموعة من المصطلحات اللسانية كأدوات إجرائية ابنى عليها تصوّر الذي انتهجه الجرجاني في كتابته: دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، وقد اشتمل ذلك على ثلاثة مصطلحات رئيسة وهي: النسق – الانزياح – التداولية. ويمكن تحليلها فيما يلي:

أ/ النسق: استعمل العمري هذا المصطلح اللساني الذي يُعدّ جزءاً جوهرياً من أعمال دي سوسير، حيث رأى أنّ تلك العناصر اللسانية تجلب قيمتها وتكتسبها بعلاقاتها فيما بينها عن بعضها البعض³⁷، وهذا التعريف جسده العمري في هذه القراءة، وأثمر له تطبيق المنهج البنوي مما أدى به إلى استخلاص جملة من الدراسات والنتائج التي توصل إليها، فمن الدراسات التي أثمرها هذا المصطلح نجد ما يلي:

- تحديده للعنصر العلائقي (أي العلاقات اللسانية) الذي يحيط بكتاب الجرجاني (أسرار البلاغة)، على حدة وكذا المحيط بكتاب (دلائل الإعجاز)، على حدة؛ ذلك أنّ العلاقات اللسانية القائمة في أسرار البلاغة تتمحور في عنصر الغرابة، استناداً لقول العمري: « فعنصر الغرابة هو العنصر المنسّق، أي الذي يعتمد المؤلف مبدئياً لصياغة نسقه البلاغي. وعليه بُنيت خطة الكتاب »³⁸.

في حين نجد أن العلاقات اللسانية القائمة في دلائل الإعجاز، تتمحور أساسا في توجيه التداولي المقصدي على وجه العموم أي مراعاة المقام الخطابي والغرض من الخطاب ومقاصد المتكلمين، وتتركز بالأخص على العلاقة القائمة بين اللفظ والمعنى وهي خصوصية النظم وصورته، والتي أشرنا إليها سابقا (في المداخل التي أشار إليها العمري).

- تحديده العنصر العلائقي الذي يجمع ما بين تصور الجرجاني في كتابه «دلائل الإعجاز» وكتابه «أسرار البلاغة» معاً، فالعمري قد بين - كما حددنا سابقا - بأنّ التصور المقصدي في الدلائل هو عنصر مكمل مع التصور الانزياحي في الأسرار، كما أشار إلى أنّ الجرجاني أعاد مقولة كتاب الأسرار التي ترتبط بالمباحث البلاغية (الاستعارة، التشبيه، التمثيل) وأضاف إليها الكناية، في قوله: «... هذه هي الخطة الصريحة لكتاب دلائل الإعجاز فهو يعيد مقولة كتاب الأسرار التي قوامها ورأس هرمها الاستعارة والتمثيل الاستعاري، ثم يضيف إليها الكناية، قبل أن يوسع ليستوعب كلّ صور المجاز والاتساع والعدول باللفظ عن الظاهر»³⁹، وبالتالي نلفي وجود علاقات لسانية قائمة بين الكتابين انطلاقاً من مصطلح النسق وارتباطه بالمنهج البنوي.

- أدى هذا المصطلح إلى تحديد المداخل (المشار إليها سابقا) التي دخل بها العمري في مضامين الكتابين⁴⁰.

كما أنه من النتائج التي استثمرها العمري من خلال مصطلح النسق ما يلي:

- لقد كشف هذا المصطلح إلى تنويه العمري لعنصر جوهري لم يخض فيه الجرجاني ألا وهو: المستوى الصوتي، إذ برّر العمري موقف الجرجاني من ذلك وهو مسألة الخلفية العقائدية الأشعرية التي انتهجها الجرجاني؛ التي تظهر جليا من خلال حديث الجرجاني عن المعاني النفسية، أو ترتيب المعاني في النفس، ودليل ذلك قوله: «الكلم تترتب في النطق بسبب ترتب معانيها في النفس، وأنها لو خلت من معانيها حتى تتجرد أصواتا وأصداً حروف، لما وقع في ضمير ولا هجس في خاطر، أن يجب فيها ترتيب ونظم، وأن يجعل لها أمكنة ومنازل، وأن يجب النطق بهذه قبل النطق بتلك»⁴¹، وهو ما أثبتته العمري في أنّ البلاغة عنده كامنة في المعاني، والتي تظهر في مستويين: مستوى الغرض الخاص بالمتكلم، ومستوى «الذرائع وأسباب التسلق إلى الغرض، أي التدليل على أنّ النظم هو الموضوع المناسب للبحث في المزية، ودفع أن تكون المزية في الصوت. والنظم يعارض الصوت باعتبار الأول عملية معنوية تجري في الذهن»⁴².

وبالتالي فإنّ هذا المصطلح قد أثمر مجموعة من الدراسات والنتائج التي توصل إليها العمري.

ب/ الانزياح: لقد استعمل العمري هذا المصطلح ورأى أنه متوفر كمادة ذوقية عند الجرجاني خصوصاً في كتابه «أسرار البلاغة»، ومثال ذلك «الانزياح المجازي» الذي وصفه الجرجاني بالمجاز الحُكمي وقد تحدث فيه عن الزيادة والحذف (في نظم الكلام)⁴³.

وحين ندقق في استعمال العمري لهذا المصطلح نجد أنّه ظاهر في مضمونه بشكل كبير عند الجرجاني، ذلك أننا نستشف من هذا نوعين من الانزياح، فأولها هو الانزياح التركيبي: الذي يتصل مفهومه اتصالاً مباشراً بـ «السلسلة السياقية الخطية للإشارات اللغوية، عندما تخرج على قواعد النظم والتركيب؛ مثل الاختلاف في ترتيب الكلمات»⁴⁴، وهذا ما نلاحظه جلياً عند الجرجاني خصوصاً في كتابه الدلائل، وذلك في حديثه عن معاني النحو (التقديم والتأخير، الحذف، التعريف والتنكير، الفصل والوصل) التي يحدث فيها المتكلم تغييراً في التركيب الأصلي والوضعي للجملة بحسب الغرض والقصد الذي يريده، ولنضرب مثلاً على ذلك وهو: الحذف الذي وصفه الجرجاني بقوله: «هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجذك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبين»⁴⁵، ثم يقدم الجرجاني مجموعة من الأمثلة والنماذج التي لها صلة بهذا المبحث البلاغي الذي يشير في مضمونه إلى حدوث انزياح تركيب في أصل الجملة، ومن بين النماذج في ذلك، نجد حذف المبتدأ الذي ينبني عليه مجموعة من الأغراض البلاغية يقتضيها مقام الخطاب، مثل غرض المتمثل في سرعة الحدث الخطابي الذي يتأتى حذف هذا الركن من أركان الإسناد (المبتدأ) وذلك في قول عبد الله بن الزبير (ت73هـ) يذكر غريباً قد ألح عليه: [من الطويل]

عرضت على زيد ليأخذ بعض ما *** يحاوله قبل اعتراض الشواغل

فدبّ ديبب البغل يألم ظهره *** وقال: تعلم، أنني غير فاعل

تثأب حتى قلت: داسع نفسه *** وأخرج أنياباً له كالمعاول⁴⁶

في هذه الأبيات الشعرية يشير الجرجاني إلى وجود حذف أحد أركان الإسناد وهو المبتدأ (المسند إليه)، في جملة (داسع نفسه) والأصل فيها: (هو داسع نفسه)، وبين الجرجاني الغرض البلاغي الذي يتأتى من هذا الحذف والمتمثل أساساً في سرعة الموقف المؤدي إلى الدّسع (الدفع بقوة) وإخراج الأنياب، وهذا ما ذكره الجرجاني في قوله: «الأصل: حتى قلت: «هو داسع نفسه"، أي حسبته من شدة الثأوب، ومما به من الجهد، يقذف نفسه من جوفه،

ويخرجها من صدره، كما يدسع البعير جرتة. ثم إنك ترى نسبة الكلام وهيئته تروم منك أن تنسى هذا المبتدأ، وتباعده عن وهمك، وتجتهد أن لا يدور في خلدك، ولا يعرض لخطرك، وتترك كأنك تتوقاه توقى الشيء تكره مكانه، والثقيل تخشى هجومه»⁴⁷.

فمضمون الانزياح التركيبي ظاهر جليا في هذا النموذج عند الجرجاني، وهو أول النوعين، وأما ثانيهما فهو الانزياح الدلالي، الذي وظف الجرجاني مضمونه، ومن النماذج الجوهرية في هذا الصدد عنده هو قضية "معنى المعنى" وذلك في سياق حديثه عن نوعين من الكلام، نوع يتوصل إليه من دلالة اللفظ وحده مثل: خرج زيد، عمرو منطلق، فعل الخروج من زيد ظاهر على وجه الحقيقة ونفس الشيء بالنسبة لحقيقة الانطلاق من عمرو، ونوع لا يتوصل إليه من ظاهر المعنى مباشرة بل معنى اللفظ يؤدي إلى معنى ثانٍ ضمني، ونجده في الكناية عن صفات الكرم، وطول القامة، وعن موصوف المرأة التي تجد من يخدمها في قول الجرجاني: «وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض. ومدار هذا الأمر على "الكناية" و"الاستعارة" و"التمثيل"، وقد مضت الأمثلة فيها مشروحة مستقصاة. أو لا ترى أنك إذا قلت: "هو كثير رماذ القدر"، أو قلت: "طويل النجاد"، أو قلت في المرأة: "نؤوم الضحى"، فإنك في جميع ذلك لا تفيد غرضك الذي تعني من مجرد اللفظ، ولكن تبدل اللفظ على معناه الذي يوجبه ظاهره، ثم يعقل السامع من ذلك المعنى، على سبيل الاستدلال، معنى ثانيا هو غرضك، كمعرفتك من "كثير رماذ القدر" أنه مضاف، ومن "طويل النجاد" أنه طويل القامة، ومن "نؤوم الضحى" في المرأة أنها مترفة مخدومة، لها من يكفيها أمرها»⁴⁸.

ويستنتج الجرجاني أنّ هذا محتمل لمعنيين معنى ظاهري من اللفظ، ومعنى ضمني (كنائي) يقتضيه الغرض البلاغي والمقام الخطابي في قوله: «وإذ قد عرفت هذه الجملة، فهنا عبارة مختصرة وهي أن تقول: "المعنى"، و "معنى المعنى"، تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة و "بمعنى المعنى"، أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر، كالذي فسرت لك»⁴⁹. وهذا هو المعنى الخاص الفني الضمني الذي يحتاج إلى تأويل وابتكار وتعمّل للذهن.

ج/ التداولية:

يُعدّ هذا المصطلح عنصرا جوهريا في قراءة العمري لمشروع الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز؛ والسبب في وجود هذا الاصطلاح عنده يتمثل في وجود التوجيه المقصدي،

ويرتبط ذلك بمعالجة الجرجاني للعلاقات الوظيفية في التركيب (التقديم والتأخير، الحذف، التعريف والتنكير... الخ) وكذا الإجراءات العدولية الجارية عليها، إضافة إلى بعض القضايا الانزياحية (الاستعارة، الكناية، التمثيل) وهذا كله خدمةً للمقاصد والأغراض الخطابية، ونُعدّ قضية المقصدية مفهوماً جوهرياً يقوم عليه الفعل الكلامي في الدرس اللساني التداولي المعاصر⁵⁰.

والسبب الثاني الذي جعل العمري يذكر مصطلح «التداولية» هو أنّ محور الكتاب يدور حول مرجعية دينية أساسها أن فكرة إعجاز القرآن الكريم تكمن في النظم وليس بالصّرف، وهو ما جعل الجرجاني يجعل قضية النظم مركزاً في ذلك على نظرية المعنى، حيث أخرج «من مجال المواضيع إلى رحابة الاستعمال، عن طريق الربط بين الألفاظ في التراكيب وفق ما تملّيه معطيات السياق (...) ومن هنا يمكن القول أنّ كتاب دلائل الإعجاز يدور في مجمله على مناقشة هذه الثنائية: ثنائية المواضيع والاستعمال، وقد أكد الجرجاني من خلال انتصاره للطرف الثاني (الاستعمال)، على حساب المواضع»⁵¹.

فالشق الثاني المرتبط بالاستعمال يُعدّ من المهام الجوهرية للتداولية في الدرس اللساني المعاصر؛ لكونها (التداولية) تدرس اللغة «عند استعمالها في الطبقات المقامية المختلفة، أي باعتبارها كلاماً محدداً صادراً من متكلم محدّد وموجّه إلى مخاطب محدّد في مقام تواصلٍ محدّد لتحقيق غرض تواصلٍ محدّد»⁵²، وهذا السبب الثاني الذي جعل العمري يفصح عن المصطلح التداولي عند الجرجاني في كتابه «دلائل الإعجاز»، ولنضرب نموذجاً حول مسألة دراسة اللغة في مجال الاستعمال عند الجرجاني، وهو أنه ركّز على مسألة «التقديم والتأخير» في مجالها الاستعمالي، حيث أنه انطلق من قضية المواضع عند النحاة، التي تتمثل في أن التقديم والتأخير يأتي للعناية والاهتمام، وذلك في مقولة سيبويه: «كأنهم إنّما يقدّمون الذي بيانه أهم لهم وهم يبيانه أغنى، وإن كانا جميعاً يُهمّانهم ويُغنيانهم»⁵³.

وقد ردّ الجرجاني على هذا الأصل الوضعي للغة في قوله: «واعلم أنّا لم نجد لهم اغتمدوا فيه شيئاً يجري مجرى الأصل، غير العناية والاهتمام. قال صاحب الكتاب، وهو يذكّر الفاعل والمفعول: «كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم يبيانه أغنى، وإن كانا جميعاً يُهمّانهم ويُغنيانهم» ولم يذكّر في ذلك مثلاً»⁵⁴.

ثمّ يرمي اهتمامه على الجانب الاستعمال الذي يراعي المقامات الخطابية المختلفة والأغراض البلاغية المتأتية عن ذلك في قوله: «وقد وقّع في ظنون الناس أنّه يكفي أن يقال: «إنه قديم للعناية، ولأنّ ذكره أهم»، من غير أن يُذكر، من أين كانت تلك العناية؟ وبم كان

أهم؟»⁵⁵، وعلى هذا الأساس نجد أن الجرجاني يعالج قضية اللغة في شقها الاستعمالي والمتجسد في نظم الخطاب. إضافة إلى أنه من النماذج التي عالجه الجرجاني معالجة تداولية نجد مبحث "الفروق في الخبر" وهو مبحث ركّز فيه على مسألة المقام ومقتضى الحال، والقصد من المتكلم في قوله: «ومن فروق الإثبات أنك تقول: "زيدٌ مُنْطَلِقٌ" و "زيدٌ المنطلقُ" و "المنطلقُ زيدٌ"، فيكون لك في كلّ واحدٍ من هذه الأحوال غرضٌ خاصٌّ وفائدةٌ لا تكون في الباقي (...) اعلم أنك إذا قلت: "زيدٌ منطلقٌ"، كان كلامك مع مَنْ لم يعلم أن انطلاقاً كان، لا مِنْ زَيْدٍ ولا مِنْ عَمْرٍو، فأنت تُفيدُه ذلك ابتداءً. وإذا قلت: "زيدٌ المنطلقُ" كان كلامك مع مَنْ عَرَفَ أن انطلاقاً كان، مِنْ زَيْدٍ وإِما مِنْ عَمْرٍو، فأنت تُعلمُه أنه كان مِنْ زَيْدٍ دون غيره. الثَّكْتَةُ أنك تُثَبِّتُ في الأول الذي هو قولك: "زيدٌ منطلقٌ" فعلاً لم يَعْلَمْ السامعُ من أصله أنه كان، وتُثَبِّتُ في الثاني الذي هو "زيدٌ المنطلقُ" فعلاً قد عَلِمَ السامعُ أنّه كان، ولكنه لم يَعْلَمْهُ لِرَيْدٍ، فأَقْدَنُهُ ذلك»⁵⁶.

انطلاقاً من هذا الطرح نستشف أن الجرجاني قد أولى اهتمامه على مقام الخطاب ومقتضى الحال الذي هو متماثل إلى حدٍ بعيد مع ما أقرته الطروحات التداولية لاسيما في حديثها عن مبدأ الاستراتيجيات التداولية المنصاعة لنفس المعطى (البلاغي / التداولي) المتحكم في قضية الرتبة وهو مقام التلفظ⁵⁷. وبالتالي فإنّ هذا المصطلح الذي استعمله العمري (التداولية) نجداً أن له أبعاداً مفاهيمية عند الجرجاني تتعلق بالجانب المقاصدي، والاستعمالي الذي يركز على مراعاة المقام وأحوال المخاطبين.

2-2/ التحديد في استحداث قضايا علم النص:

ناقش العمري قضية اللفظ والمعنى عند الجرجاني، وقد كشف من خلالها إنجازاً — أشرنا إليه سابقاً — ضمن النسق العام عند الجرجاني، وهو حديثه عن صورة المعنى إلى اللفظ، باعتبارها حياة مشكّلة لعلاقة قائمة بين اللفظ والمعنى، وقد ربطها الجرجاني بمسألة المجاز وصوره المتعددة كالكناية التي رأى أنها تشتمل على (معنى المعنى)، والصور القائمة على هذا الأساس مرتبطة أساساً بالنظم النحوي، وبالتالي يكون معيار جماليته ومناسبتها التداولية لمقاصد الكلام معتبراً من هذه الجهة و«أما من حيث الجوهر فإن ربط بلاغة الاستعارة وغيرها من صور التغيير الدلالي بالنظم النحوي يُعتبر إنجازاً بلاغياً متقدماً أو سابقاً لعصره»⁵⁸.

والقصد من هذا السبق هو استثمار مفاهيم «علم النص» في الدراسات اللسانية الغربية المعاصرة، والتي تتعلق أساساً بالتماسك والانسجام، ليس على مستوى الجملة فحسب، وإنما تجاوز ذلك على مستوى الصورة العامة للنص الشعري، ويتجلى هذا في

المزاوجة بين معنيين في الشرط والجزاء معا، والتقسيم ثم الجمع، وتشبيه شيئين بشيئين، ولنضرب مثالا على كل واحد من هذه العناصر الدالة تماسك النص الشعري وانسجامه، فأولها في المزاوجة بين معنيين في الشرط والجزاء معا، في قول البحراني: [من الطويل]

إذا ما نَهَى النَّاهِي فَلَجَّ بِي الْهَوَى *** أصاحتُ إِلَى الْوَاشِي فَلَجَّ بِهَا الْهَجْرُ⁵⁹

يجمع الشاعر في هذا البيت بين "الشرط والجزاء في لزوم شيء وهو لجاج الهوى ولجاج الهجر، ولا يخفى ما في ترتب لجاج الهوى على النهي من المبالغة في الحب لاقتضائه أن ذكرها ولو على وجه العتب يزيد حبه ويثيره"⁶⁰. وقد استخدم الشاعر في هذه المزاوجة قرائن لغوية ساهمت في ذلك وهي (إذا، فاء الجزاء، الباء، ضمير الهاء).

وثانيهما التقسيم ثم الجمع، في قول حسان بن ثابت: [من البسيط]

قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمْ *** أَوْ حَاوَلُوا النَّفْعَ فِي أَشْيَاعِهِمْ نَفَعُوا
سَجِيَّةٌ تِلْكَ مِنْهُمْ غَيْرُ مُحَدَّثَةٍ *** إِنَّ الْخَلَائِقَ، فَاعْلَمْ، شَرُّهَا الْبِدَعُ⁶¹

ذكر الشاعر في هذين قسمين من صفات الممدوحين وهما: «ضر الأعداء، ونفع الأولياء، ثم جمعها في البيت الثاني بقوله: سجية تلك، ثم أشار إلى شر الأخلاق ما كان مستحدثا مبتدعا لا ما كان غريزة وجبلة»⁶² مستخدما في ذلك قرائن لغوية ساهمت في تحقيق هذا العنصر المتمثل في التماسك والانسجام وهي: (إذا، أو، في، هم). وأما ثالثهما فهو تشبيه شيئين بشيئين، وذلك في قول امرئ القيس: [من الطويل] كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابَسًا *** لَدَى وَكْرِهَا الْعَنَابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي

فالشاعر ركب تشبيها بين صورتين؛ حيث شبه الرطب من قلوب الطير بالعناب، وشبه اليابس العتيق منها بالحشف البالي⁶³. ثم يفصح الجرجاني عن هذه الهيئة والصورة التي ينبغي أن يراعى في تركيبها جودة الضم بين الكلم وفق النظام النحو في قوله: "واعلم أن من الكلام ما أنت تعلم إذا تدبرته أن لم يحتج واضعه إلى فكر وروية حتى انتظم، بل ترى سبيله في ضم بعضه إلى بعض، سبيل من عمد إلى لآل فخرطها في سلك، لا ينبغي أكثر من يمنعهما التفرق، وكمن نضد أشياء بعضها على بعض، لا يريد في نضده ذلك أن تجيء له منه هيئة أو صورة، بل ليس إلا أن تكون مجموعة في رأي العين. وذلك إذا كان معنك، معنى لا تحتاج أن تصنع فيه شيئا غير أن تعطف لفظا على مثله"⁶⁴.

وفي سياق آخر يشير الجرجاني إلى الفرق الجوهرية بين (حروف منظومة وكلم منظومة) مبينا أن الفائدة من هذا الفرق هو أن الغرض ليس حاصلًا على نظم الكلم وضم بعضها ببعض فحسب، بل يكمن في انسجام المعاني والدلالات وتناسقها وترابطها وفق ما يمله

مجريات العقل البشري في قوله: «والفائدة في معرفة هذا الفرق: أنك إذا عرفته عرفت أن ليس الغرض بنظم الكلم، أن توالى ألفاظها في النطق بل أن تناسقت دلالتها. وتلاقت معانيها، على الوجه الذي اقتضاه العقل»⁶⁵.

وذلك من خلال ترتيب ألفاظها وتراكيبها على حسب ترتيب المعاني النفسية وتصاغ في نسيج لغوي محكم الصياغة والتأليف، فالنص عند الجرجاني لغوي محكم البناء بين المعاني النفسية والتراكيب اللغوية، وهذه نظرة تتقاطع مع ما جاء به الهولندي «فاندايك» (Vandaic) في نظرية النسيج المتشابك للنص، حيث اعترض على القواعد الكلاسيكية في تحليل النصوص، ودعا إلى الوقوف في تحليلها على آليات الإضافة، الحذف والذكر والاستبدال، ليخرج من نحو الجملة وصولاً إلى نحو النص⁶⁶.

إضافة إلى أن الجرجاني قد وظف مجموعة من المصطلحات المرتبطة ببلاغة الخطاب والمتقاطعة مع الأدوات اللغوية للسانيات النص عند الغربيين، والمتمثلة في التناسق ومراعاة الجانب الدلالي العميق، وذلك في سياق حديثه عن أهمية مصطلحات البلاغة (الفصاحة، البلاغة، البيان، البراعة) وهذه المصطلحات هي في قوله: «وجدت المعول على أن ههنا نظماً وترتيباً، وتأليفاً وتركيباً، وصياغةً وتصويراً، ونسجاً وتجبيراً، وأن سبيل هذه المعاني في الكلام الذي هي مجاز فيه، سبيلها في الأشياء التي هي حقيقة فيها، وأنه كما يفضل هناك النظم والنظم، والتأليف والتأليف، والنسج والنسج، والصياغة والصياغة، ثم يعظم الفضل، وتكثر المزية، حتى يفوق الشيء نظيره والمجانس له درجات كثيرة»⁶⁷، والمدقق لهذه المصطلحات يجد أنها تشكّل ترابطاً تدريجياً فيما بينها، [نظم، ترتيب][صياغة، تصوير][تأليف، تركيب][نسج، تجبير]، وهذا التدرج مرتبط بين العلاقات الظاهرية للتركيب، والعلاقات الباطنية (التصويرية له) لتحقيق الاتساق والانسجام وهو ما يمثله الشكل الآتي:

درجة السبك ← نظم + ترتيب (علاقة ظاهرية)

درجة الحبك ← صياغة وتصوير (علاقة باطنية)

وبالتالي فإن الغرض الجامع بين ما جاء به الجرجاني وما حققته الدراسات الغربية في لسانيات النص، هو دراسة النص في جملته وكيفية تحقيق التماسك والتناسق فيه، وما استخدام الجرجاني لمصطلح النظم لإقرار بضم الحروف والكلم في جمل والجمال في نصوص عبر علاقات نحوية لتحقيق نسيج كلي⁶⁸، ومن هنا نجد أن العمري قد استثمر مفاهيم الجرجاني من خلال قراءته لمشروع المتجسد في "الدلائل والأسرار" للوصول إلى قراءة حداثية تربط ما بينه (الجرجاني) وما بين الدراسات اللسانية الغربية.

خاتمة البحث: (النتائج والتوصيات التي توصل إليها البحث)

وفي الأخير يمكن استخلاص النقاط الآتية:

- ✓ إنّ التداخل والتقاطع الحاصل بين التراث البلاغي العربي والدراسات اللسانية ليس الهدف منه الجمع والتلفيق لأن هذا لا يرقى إلى مستوى البحث العلمي، وإنما يهدف أساساً إلى غزارة التراث البلاغي بكثير من المسائل التي أقرتها الدراسات اللسانية مع الأخذ بعين الاعتبار خصوصية الدرسين (التراث، الدراسات اللسانية).
- ✓ استثمر محمد العمري بعض المناهج اللسانية الحديثة في قراءة مشروع عبد القاهر الجرجاني مثل: المنهج التداولي، الشعرية... الخ، فنتج عن ذلك تصور شمولي للبلاغة استوعبت فيه الجانبين التخيلي والتداولي.
- ✓ يتقاطع كتاب أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني - بحسب نظرة محمد العمري - مع قضايا الشعرية، وأما دلائل الإعجاز فينتقاطع مع الأبعاد التداولية.
- ✓ وجد محمد العمري نقطة انتقال عبد القاهر الجرجاني من كتابه: الأسرار (الغربة الشعرية) إلى: الدلائل (المناسبة التداولية) وهي: معالجة مقتضيات النظم، ففي الأسرار لم تكن مرتبطة بقضية الإعجاز، وقد ارتبطت في الدلائل وتبين فيها تفوق القرآن الكريم على كلام العرب.
- ✓ إنّ الهدف الرئيس الذي يسعى إليه العمري في تجديده للبلاغة العربية هو إعطاء تصوّر شمولي يتجاوز قضية التخيّل والإمتاع المتعلق الشعر إلى الجانب الإقناعي المتعلق بالخطاب؛ ليجسد بذلك تصوّر حازم القرطاجيّ لها (العلم الكلي الذي يشمل علوم اللسان).
- ✓ إنّ مشروع العمري في تجديد البلاغة قمين بأن يولي اهتماماً وعناية من قبل الباحثين، ويجعلهم يساهمون في استكمال مسيرته للوصول إلى بلاغة عالمية لها بُعد شمولي يربط بين أصولها في التراث، ويمتدّ مع النظريات اللسانية الغربية.

مصادر ومراجع البحث:

- 1/ أحمد مطلوب، عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، وكالة المطبوعات، ط1، شارع فهد السالم- الكويت، تط1393هـ / 1973م.
 - 2/ الجرجاني (أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن): أسرار البلاغة في علم البيان، تحقيق عبد الحميد هندawi، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت- لبنان، تط1422هـ / 2001م.
 - 3/ دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، ط3، القاهرة- مصر، تط1413هـ / 1992م.
 - 4/ حازم القرطاجني، منهاج البلاغة وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، ط3، تونس، دت.
 - 5/ حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، دط، تونس، تط1981م.
 - 6/ سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان)، الكتاب، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق، ط1، القاهرة- مصر، تط1316هـ.
 - 7/ طه حسين، نقد النثر، دار الكتب العلمية، دط، بيروت- لبنان، تط1400هـ / 1980م.
 - 8/ عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة والمرايا المقعرة (من البنيوية إلى التفكيكية)، سلسلة عالم المعرفة، دط، الكويت، تط1998م.
- محمد العمري:
- 9/ البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، دار أفريقيا الشرق، ط2، المغرب، تط2012م.
 - 10/ البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، دار أفريقيا الشرق، ط2، المغرب، تط2010م.
 - 11/ مسعود صراوي، التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة، ط1، بيروت- لبنان، تط جوان 2005م.
- بحوث أكاديمية:**
- 1/ ثقبائث حامدة، قضايا التداولية في كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، إشراف: ذهبية حمو الحاج، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، السنة الدراسية 2011 / 2012م.
 - 2/ واضح أحمد، الخطاب التداولي في الموروث البلاغي العربي، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، إشراف لزعر مختار، اللغات والفنون، كلية الآداب، جامعة وهران، السنة الجامعية 2011/2012م.
- مقالات علمية:**
- 1/ سمية ابرير، مفاهيم لسانيات النص في دلائل الإعجاز، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر، بسكرة- الجزائر، جوان 2011م، ع9.

الهوامش:

¹ محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، دار أفريقيا الشرق، ط2، المغرب، تط2012م،

ص28.

- ² / حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، ط3، تونس، دت، ص19، 20.
- ³ / نفسه، ص362.
- ⁴ / يُنظر: محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، دار أفريقيا الشرق، ط2، المغرب، تط2010م، ص323.
- ⁵ / يُنظر: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص325.
- ⁶ / نفسه، ص323.
- ⁷ / الجرجاني (أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن)، أسرار البلاغة في علم البيان، تحقيق عبد الحميد هنداي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت-لبنان، تط1422هـ/2001م، ص350.
- ⁸ / نفسه، ص05.
- ⁹ / البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص323.
- ¹⁰ / يُنظر: نفسه، ص324، 325.
- ¹¹ / يُنظر: نفسه، ص328.
- ¹² / يُنظر: نفسه، ص328.
- ¹³ / نفسه، ص329.
- ¹⁴ / يُنظر: أسرار البلاغة في علم البيان، ص412.
- ¹⁵ / نفسه، ص351.
- ¹⁶ / نفسه، ص385.
- ¹⁷ / البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، ص41.
- ¹⁸ / نفسه، ص346.
- ¹⁹ / أسرار البلاغة في علم البيان، ص338، 339.
- ²⁰ / يُنظر: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص346.
- ²¹ / يُنظر: نفسه، ص345.
- ²² / نفسه، ص346.
- ²³ / أسرار البلاغة في علم البيان، ص395.
- ²⁴ / طه حسين، نقد النثر، دار الكتب العلمية، دط، بيروت-لبنان، تط1400هـ/1980م، ص29.
- ²⁵ / يُنظر: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص345.
- ²⁶ / أحمد مطلوب، عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، وكالة المطبوعات، ط1، شارع فهد السالم-الكويت، تط1393هـ/1973م، ص300. نقلا عن: أحمد أحمد بدوي، عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية، أعلام العرب، دط، القاهرة-مصر، تط1964م، ص312.
- ²⁷ / عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، ص300، نقلا عن: عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية، ص315.
- ²⁸ / البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص346، 347.
- ²⁹ / يُنظر: نفسه، ص347.

- ³⁰/ الجرجاني (أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن)، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المهدي، ط3، القاهرة- مصر، تط 1413هـ / 1992م، ص431.
- ³¹/ نفسه، ص99، 100.
- ³²/ البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص354.
- ³³/ حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، دط، تونس، تط 1981م، ص414.
- ³⁴/ دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص424، 425.
- ³⁵/ نفسه، ص81.
- ³⁶/ البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص358.
- ³⁷/ يُنظر: عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة والمرايا المقعرة (من البنيوية إلى التفكيكية)، سلسلة عالم المعرفة، دط، الكويت، تط 1998م، ص184.
- ³⁸/ البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص323.
- ³⁹/ نفسه، ص351.
- ⁴⁰/ يُنظر ذلك مثلاً في القراءة النسيقية، في كتاب: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص325.
- ⁴¹/ دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص56.
- ⁴²/ البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص311، 312.
- ⁴³/ يُنظر: دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص416، ويُنظر: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص339.
- ⁴⁴/ صلاح فضل، علم الأسلوب ومبادئه وإجراءاته، دار الشروق، دط، القاهرة- مصر، تط 1998م، ص211.
- ⁴⁵/ دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص146.
- ⁴⁶/ نفسه، ص151.
- ⁴⁷/ نفسه، ص151.
- ⁴⁸/ نفسه، ص262.
- ⁴⁹/ نفسه، ص263.
- ⁵⁰/ يُنظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة، ط1، بيروت- لبنان، تط جوان، 2005م، ص30، 44.
- ⁵¹/ ثقبابيث حامدة، قضايا التداولية في كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، إشراف: ذهبية حمو الحاج، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، السنة الدراسية 2011 / 2012م، ص34.
- ⁵²/ التداولية عند العلماء العرب، ص26.
- ⁵³/ سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان)، الكتاب، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق، ط1، القاهرة- مصر، تط 1316هـ، ج1، ص34.
- ⁵⁴/ دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص107.
- ⁵⁵/ نفسه، ص108.

⁵⁶/ نفسه ، ص 177،

178.

⁵⁷/ يُنظر: واضح أحمد، الخطاب التداولي في الموروث البلاغي العربي، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، إشراف لزعر مختار، اللغات والفنون، كلية الآداب، جامعة وهران، السنة الجامعية 2011/2012م، ص 221.

⁵⁸/ البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص 365.

⁵⁹/ دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص 93.

⁶⁰/ المراغي (أحمد بن مصطفى)، علوم البلاغة، دار الكتب العلمية، ط3، بيروت- لبنان، تط 1414هـ/ 1993م،

ص 325.

⁶¹/ دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص 94.

⁶²/ علوم البلاغة، ص 334.

⁶³/ يُنظر: نفسه، ص 219.

⁶⁴/ دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص 96، 97.

⁶⁵/ نفسه، ص 49، 50.

⁶⁶/ يُنظر: سمية ابرير، مقال بعنوان: مفاهيم لسانيات النص في دلائل الإعجاز، مجلة كلية الآداب والعلوم

الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر، بسكرة- الجزائر، جوان 2011م، ع 9، ص 170.

⁶⁷/ دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص 34، 35.

⁶⁸/ يُنظر: مفاهيم لسانيات النص في دلائل الإعجاز، ص 171، 172.